# لغة الشعر الإسلامي وتطورها بين البداوة والحضارة

د. علي كمال الدين الفهادي (*)

هبط الوحي بالرسالة إلى العرب في اشهر مراكزهم الحضارية (مكة) ثم انتقل بعد الهجرة إلى المدينة ليتم القرآن الذي بدأ نزوله في الحاضرة، وانتهى من نقل آخر آية إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – في حاضرة المدينة أيضا، ولهذا الأمر دلالته، فهو يقترب أكثر من الحواضر، وإن لم ينأ عن البوادي وقد بدأت الدعوة بين أهل الحاضرة في مدينة مكة وكان العرب المتحضرون أول من آمن بها.

وكانت لغة القرآن الكريم لغة حضارية بأسلوب معجز، وذلك يعني أن الحياة أخذت تنتقل من البادية إلى المدن وأن قيادة المجتمع غدت بأيدي المتحضرين من أهل مكة والمدينة، فلغة القرآن حضرية نزل بلهجة قريش ورسول الأمة و قائدها صلى الله عليه وسلم – قرشي مكي المولد والنشأة، معرق في الحضارة، وخلفاؤه من بعده كانوا حضريين مكيين من المهاجرين وكذلك الشأن مع كثير من القادة والولاة والعمال والدعاة، وشعراء الرسول – صلى الله عليه وسلم – ثلاثتهم مدنيون حضريون مولدا ونشأة: حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة الأنصاريون فكان ذلك إيذانا بسيادة لغة أهل المدر على لغة أهل الوبر مع بقاء اللغة

---

(*) قسم اللغة العربية - كلية الآداب / جامعة الموصل.

البدوية على شأنها بين القبائل خارج الحواضر إذ اللغة (أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم)[1]

على حد تعبير ابن جني وكان هدف الإسلام أن يخرج الأمة من الظلام إلى النور أي إلى المعرفة والعلم والثقافة والحضارة في ظل الإيمان، فقد كان للغة الحضرية شأن عظيم في تسليم قيادة الحياة إلى الحاضرة، وكان الشعر الإسلامي شديد الصلة بالحياة والواقع فراح هو الآخر متأثرا بلغة القرآن مسهما في تشييد صرح الأمة يغرف من بحر اللغة الحضرية فكانت (حضرية اللغة) من أول خصائص لغة هذا الشعر وهو أمر أبعد اللغويين عن الاحتجاج به فعافه ذوقهم الذي يبحث عن الغريب البدوي فتركوا الاستشهاد بهذا الشعر لأن لغة الحاضرة بزعمهم يخالطها فساد وخلل وخطل[2].

لقد سبق أن جلينا من قبل تأثر لغة شعر الحواضر العربية قبل الإسلام بالحضارة ومواطن ذلك التأثر والمشكلات التي قامت بين النقاد [3] اللغويين بسببه وصلته بشخصيات الشعراء المتأثرة ببيئاتهم الحضرية إن هذا الحديث يقودنا إلى الحديث عن الثنائية التي تعتري كل لغات العالم وهي إحدى المعطيات البديهية في حياة الشعوب (ولا تعد أمة من الأمم في مستوى راق من الحضارة إلا إذا نهضت بلغة القول والكتابة معا إلى درجة عالية من الرقي أي إلى درجة الفصحى، كلما تحضّر الإنسان احتاج إلى نمط خاص

---

(1) الخصائص، ابن جني (- 392هـ)، تح: محمد علي النجار، ط2، دار الهدى، بيروت، 1372هـ ـ 1952م: 33/1.

(2) ينظر المصدر ذاته: 2/ 5.

(3) الأثر الحضاري في الشعر الجاهلي (رسالة ماجستير)، جامعة الإسكندرية كلية الآداب 1980م: 83 وينظر الصفحات 179 ـ 189.

من التعبير يختلف عن النمط الذي يستعمله في وجوده اليومي) [4] هذا ما رآه كمال يوسف الحاج في ثنائية اللغة وهو رأي يناقض ما يراه إليوت من أن الشعر يجب أن يقترب من لغة الحياة اليومية وينهل من مفرداتها، (فإن لغة الحديث اليومي التي يستعملها الناس لا تقف جامدة بل هي في تغيّر، فتقوم حركة جديدة في الشعر تدعوا إلى اقتراب الشعر من هذه اللغة وتنجح هذه الحركة ويقوم أنصارها بتدعيم اللغة الجديدة وإرساء تقاليدها وإبلاغها درجة النضج والصقل والكمال لكن لغة الحديث اليومي مستمرة في التغير حتى يجيء وقت تكون فيه قد ابتعدت مرة أخرى عن لغة الشعر التقليدية فيحتاج الشعر إلى ثورة جديدة وهكذا دواليك)[5].

إن الفصل بين هذين القولين ليكمن في طبيعة النقد العربي القديم الذي طغت عليه النزعة اللغوية فصار لا يرى في النص إلا مواد لغوية معزولة عن كل سياق جمالي أو تعبيري[6].

لقد نظر النقاد العرب إلى النقد الأدبي بمنظارين: منظار لغوي يحاول إعادة النص إلى لغة البداوة والغرابة والفصاحة القديمة وإبعاد لغته عن علاقتها بعالمها الجديد المتحضر الذي ولد فيه، ومنظار كان يرى أن اللغة تنطلق من البيئة الجديدة التي تمثلها الحواضر العربية بانتقائها مفردات النص من الحياة التي يعيش فيها ويتعامل معها، ولكنه منظار لا يتسق مع منظار إليوت للشعر الذي يأخذ مفرداته من لغة الحياة اليومية التي شابتها العجمة وغشيها

---

(4) في فلسفة اللغة، كمال يوسف الحاج، ط2، دار النهار، بيروت، 1978م: 255.

(5) قضية الشعر الجديد، د. محمد النويهي، ط2، دار الفكر، مكتبة الخانجي، د.م 1971م: 20 – 21.

(6) بنية الخطاب النقدي، د. حسين خمري، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1411هـ = 1990م: 36.

اللحن وفشت فيها الركاكة، كان منظار النقاد العرب يأخذ من بحر العربية ما أغفل القدماء استعماله من المفردات اللينة السهلة التي تطاوع الحضارة [7]، ومن حسن هذا الاختيار كان الشاعر يستعمل كل الإمكانات التي تتيحها له اللغة ليصور حياته الحضرية الجديدة والعالم الإسلامي الذي يعيش فيه ويتخير اللفظ الذي يناسب هذه الحياة اختيار مدرك لأسرار اللغة العربية وخفاياها ودلالاتها الحضارية الجديدة والتراثية العريقة متفنناً في سلكها في سياقات تكسبها روح العصر الذي أبدع فيه الشعر.

لقد أتم الشعراء الفحول قبل الإسلام مهمة لها أثرها في وحدة الأمة كما يرى د. عبدالقادر القط فقد (أسهموا بنصيب كبير في خلق شعور قومي – وإن يكن غير واضح أو محدد – بين قبائل العرب الكبرى وفي تأصيل كثير من القيم الأخلاقية والاجتماعية اللازمة لنشأة أي شعب متماسك متحضر وفي التمكين للغة عربية عامة تعلو على سائر اللهجات وتصبح قادرة على التعبير عن مقومات ذلك الشعب وحضارته التي كانت توشك أن تنبثق من ظهر الغيب)[8].

بدأ الشعر في توحيد لغة تعلو على سائر اللهجات، ثم جاء القرآن الكريم بلغة تعلو على اللهجات وعلى كل الأشعار بلسان فصيح مبين ثم كانت عملية التحول في لغة الشعر نحو لغة متحضرة جانبت غرابة البداوة التي حرص عليها النقاد اللغويون وابتعدت عن العامية التي أشار إليها كمال الحاج وحاولت

(7) ينظر رأي الجرجاني علي بن عبدالعزيز (-366هـ) في الوساطة بين المتنبي وخصومه، تح: محمد أبي الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي ط4، د.م، 1386هـ = 1966م: 17-18.

(8) في الشعر الإسلامي والأموي، د. عبدالقادر القط، دار النهضة العربية، بيروت، 1979م: 13.

أن تتجدد بتعاملها مع الحياة الجديدة فاقتربت من متغيرات الواقع وأخذت من لغة الحياة الحضارية الجديدة فلقد كان ابن عباس يحث على تعلم الشعر والإلمام به ويخص منه بالتعلم شعر الحجاز (الشعر علم العرب وديوانها فتعلموه وعليكم بشعر الحجاز)[9].

ويعلق على ذلك ابن عبد ربه بقوله (فأحسبه ذهب إلى شعر الحجاز وحض عليه إذ لغتهم أوسط اللغات) [10] وهذا يدل حسب تفسير ابن عبد ربه على حرص ابن عباس على لغة تجمع كل القبائل لأنها سوف تكون أقرب اللهجات إلى النفس تذوقاً وتعلماً لأنها (أوسط اللغات) أي أن فيها قدرا مشتركا بين القبائل كما أنها أعمق ضربا في تربة الحضارة ولكن هذه اللغة لم تستقم على لون واحد أي إنها لم تكن حضرية تماما وخرجت في الوقت نفسه عن البداوة والإغراب فغدت لغة واقعية تستخدم ألفاظ البداوة ومفرداتها عندما تطرق موضوعات متصلة بالبادية والصحراء وحيوانها وتميل إلى ما يقرب من لغة الحياة اليومية عندما تتحدث عن الفكر والثقافة وتعالج موضوعات العقيدة أو الموضوعات الذاتية المتصلة بشؤون الإنسان فردا وجماعة فاللغة (تستخدم رمزا للانتماء إلى جماعة بعينها فالناس يستخدمون الكلام حتى يحددوا الجماعة الاجتماعية التي ينتمون إليها أو التي يرغبون في الانتماء إليها)[11].

---

(9) العقد الفريد، ابن عبد ربه (- 327هـ) تح: أحمد أمين وآخرين، ط 3، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1384هـ = 1965م: 5/ 281.

(10) المصدر ذاته: 5/ 281.

(11) علم اللغة الاجتماعي، د. هدسون، تر: د. محمود عبدالغني عباد، دار الشؤون الثقافية العامة _ بغداد، 1987م: 327.

ولغة الشعر تمثل النقلة الحضارية من البادية إلى المدينة ثم تضم في ثناياتها كل علاقات الحياة التي أبقاها الإسلام والتي جاء بها، فاللغة (تختزن سياقا تاريخيا واجتماعيا أكثر من أية أداة فنية أخرى، فهي الأداة التي تلتحم بصورة مباشرة متينة بالتطور التاريخي لتكوين المجتمعات البشرية وتحدد شروط بقائها)[12].

إن لغة الشعر في صدر الإسلام قد استطاعت أن تختزن جوانب كثيرة من ثقافة العصر الإسلامية، لأن لغة الأدب بعامة (ليست مجردة هامدة كالحجر وإنما هي ذاتها من إبداع الإنسان ولذلك فهي مشحونة بالتراث الثقافي لكل مجموعة لغوية)[13].

لقد أبدى الإسلام اهتماما كبيراً بالإنسان وحياته وشؤونه العامة والخاصة وجعله محور الكون والحياة والطبيعة، وتأثر الشعر الإسلامي بذلك فصدر عنه واتجه إلى قضايا الإنسان يعرضها أحيانا ويعالجها أحيانا أخرى ولذلك كانت لغة هذا الشعر منسجمة مع الإنسان وموقفه من الحياة وضوحا وسهولة ويسراً، وابتعدت عن الغرابة والإغراب ومظهر ذلك ما أشرنا إليه من ترك المقدمات في القصائد والتي كانت تزخر بالمفردات الغريبة لا سيما في المقدمات التي تطول على حساب موضوع القصيدة من وصف للأطلال والناقة والظعائن وتشبيه الناقة بالثور الوحشي أو البقرة الوحشية أو ذكر النعام ووصف الصحراء والسراب والغيث والبرق ومواقع السحاب كل ذلك

---

(12) مقدمة في نظرية الأدب، د. عبدالمنعم تليمة، ط2، دار العودة، بيروت، 1979م: 11.

(13) نظرية الأدب، رينيه ويليك واوستن وارين. تر: د. محي الدين صبحي، مطبعة خالد الطرابيشي، د.م. 1972م: 22.

كان بحاجة إلى لغة يكثر فيها الغريب [14]، فلما استغنى الشاعر عنها أصبح في غنى عن مفردات اللغة التي تناسبها وأبدى اهتماما بالإنسان مادحاً أو مفاخراً ومحباً غزلاً أو محارباً ومحاوراً فاحتاج في ذلك كله إلى لغة حضرية فيها شيء من البساطة والوضوح وشيء من اللين والرقة تقوى نبراتها وتخفت بما يتناسب وقوة العاطفة التي تكمن فيها (وليست الألفاظ في بساطتها أو جلالها هي المحك ولكن الطاقة أو العاطفة أو الحركة التي يسبغها الشاعر عليها هي التي تحدد قيمتها) [15] وهذه حسنة من حسنات الشعر الإسلامي، فلغة القصيدة كما ترى د. نازك الملائكة (ينبغي أن تحتوي كل ما تحتاج إليه لكي تكون مفهومة وهذا هو السبب في نفورنا اليوم من استعمال الألفاظ القاموسية غير المألوفة في لغة العصر ذلك أن هذا يحتفظ بجزء من معنى القصيدة في خارجها، في القاموس، وهذا في صميمه، يتعارض مع التعبير ومع لحظة الإبداع عند الشاعر)[16].

فعندما نقرأ قول أبي الأسود الدؤلي الذي يسجل فيه تجربة عاشها في حياته وخبرها من خلال علاقته بأفراد مجتمعه، ونظرة الشاعر إلى العطية وفهمه لها فهماً ينبع من صدق إيمانه بنظرة الإسلام إلى الكرم والعطاء نتبين

---

(14) الخفاء والتجلي في لامية عبدة بن الطبيب، د. علي كمال الدين الفهادي، مجلة آفاق الثقافة والتراث ع (15)، السنة (4)، 1417هـ = 1996م، ينظر الجزأين: الثاني في وصف الناقة والثالث في وصف الثور الوحشي وكلاب الصياد: 37 – 43.

(15) الشعر كيف نفهمه ونتذوقه، اليزابث درو، تر: محمد إبراهيم الشوش، بيروت 1961م: 89.

(16) قضايا الشعر المعاصر، د. نازك الملائكة، ط2، مكتبة النهضة، بغداد، 1965م: 205.

في شعره وضوح اللغة الغنيّة بمفردات الإيمان القائمة على الصدق والوفاء بالوعد في الحياة الاجتماعية[17]:

إن العطيّة خير ما وجهتهـــا وحسبتها حمداً وأجراً واجبا
ومن العطية ما يعود غرامــة وملامة تبقى ومنّا كاذبـــــا
وبلوت أخبار الرجال وفعلهم فملّئْت علماً منهم وتجاربـا
فآخذت منهم ما رضيت بأخذه وتركت عمداً ما هنالك جانباً
فإذا وعدت الوعد كنت كغارم ديناً أقر به وأحضر كاتبـــاً
حتى أنفذه على ما قلتـــــــــه وكفى عليّ به لنفسي طالبـا
وإذا فعلت فعلت غير محاسب وكفى بربك جازيا ومحاسبـا
لا أشتري الحمد القليل بقــاؤه يوما بذم الدهر أجمع واصبا[18]

وإذا حاولنا أن نستقرئ الشعر الإسلامي وجدناه يتضمن في شعر الفتوح بخاصة (عددا من الألفاظ الأعجمية كأسماء الأمكنة وأعلام الرجال ورتبهم وتمثل ذلك في شعر الفتوح غالبا كالذي ورد في شعر القعقاع بن عمرو التميمي من مثل: جلولاء، ونهاوند، وقديس، وفحل وماهات، وسوى، وخوصاء، وزمازم، ووادي خرد. أما أعلام الرجال ورتبهم فمن مثل: المسحلان، والهرمزان، والفيرزان، والمرازب، ونهر شير، وروز، ورستم، والبيرزان وفي شعر عاصم بن عمرو التميمي: الملطاط، والبقايس، وتسكر، والنرسيان، وجندي سابور وزريخ، ونمارق، ودرتا، والهوافي،

(17) ديوان أبي الأسود الدؤلي (- 69هـ) صنعة أبي سعيد الحسن السكري، تح: محمد حسن آل ياسين دار الكتاب الجديد، بيروت 1974م: 36-37.

(18) الواصب: الدائم.

والبذارق، ونيْق، وحنـوين، وزيال. وفي شعر نافع بن الأسود نجد:الرّي، ومرو، ورزيْق، وجرجان، والقوادس، والملـّوط، ونهروان وقرّان، وفي شعر أبي مفزر الأسود بن قطبة: زُمَيْلْ، وبهْر سير، وسهوك)[19].

إن وجود هذه الألفاظ يعطينا دليلاً على قدرة الشعر الإسلامي على تطويع الألفاظ الأعجمية للوزن الشعري [20]، لأن بناء الألفاظ لا ينسجم مع الذوق العربي، ولكن ورود هذه الألفاظ في الشعر العربي يثير في نفس المؤمن مشاعر إسلامية بالزهو والانتصار وشعوراً بالمشاركة الإسلامية في اللغة لشعوب هذه الأرض التي حرر الفاتحون إنسانها من ظلم السلطان وظلم النفس بالكفر والضلالة وحرروا الأرض من مواقد النيران ومعابد الأوثان والأصنام فصارت مسجداً طهوراً للمؤمنين.

إن هذه الألفاظ التي وردت في شعر الفتوح خاصة لتذكر بأفواج الشهداء الذين سفحوا الدم الطهور في سبيل الله ومن أجل حرية الأرض والإنسان.

ونجد فضلاً عن تلك الألفاظ ألفاظاً أخرى لها دلالات دينية عقدية تحدد الجماعة الاجتماعية التي ينتمون إليها [21] كما يرى هدسن، و(تختزن سياقاً تاريخياً واجتماعياً) [22] على رأي د. عبدالمنعم تليمة، فنحن نجد في

---

(19) ينظر أشعار هؤلاء في شعراء إسلاميون، د. نوري حمودي القيسي، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، د. ت.

(20) مقدمة في دراسة الأدب الإسلامي، د. مصطفى عليان، دار المنارة، السعودية ـ جدة 1405هـ = 1985م: 109.

(21) ينظر علم اللغة الاجتماعي: 327.

(22) مقدمة في نظرية الأدب: 11

قصيدة للنعمان بن بشير حشدا من الألفاظ (الإسلامية) في قصيدة لا تتجاوز الثمانية وعشرين بيتاً (تبارك، وذو العرش، والدين، والنبي، ومحمد، ورسولاً، ورزقه، واشهد، وبربكم، وضل، ونصاراهم، وتهوّدا، وكتاب، والله، وربه، ورسوله، والهدى، والتقى، ويوم القيامة، والخالق، والبارئ، ونعمة ربّه، والخلق، وجنات النعيم، وتوبا، والله، وإمام الهدى، والحق)[23].

والحق إن هذا الحشد من الألفاظ الإسلامية لا نجده بهذه الكثافة في كل الشعر الإسلامي لأن الأمر مرهون بطبيعة الموضوع وثقافة الشاعر ففي شعر النعمان بن بشير (تكثر الألفاظ الإسلامية كثرة ظاهرة) [24] كما تكثر في شعره أيضا المعاني القرآنية، كما يشير إلى ذلك د. يحيى الجبوري (والمعاني القرآنية كثيرة في شعر النعمان، يستطيع القارئ أن يتعرف على اثر ثقافته الإسلامية في هذا الشعر، وأن يرجع الألفاظ والمعاني إلى مواطنها من كتاب الله المجيد)[25].

فكما كثرت الألفاظ الأعجمية في أسماء الأعلام والأماكن في شعر الفتوح فقد كثرت الألفاظ الدينية في الشعر الديني الذي يعدّه د. سامي العاني من (ابرز الأغراض الجديدة، حيث بدأ الشعراء يتحدثون عن عقائد الدين ومثله العليا، ويدعون إلى التمسك بها والتحلي بما تدعو له... تحدث الشعراء في

---

(23) شعر النعمان بن بشير الأنصاري، تح: د. يحيى الجبوري، مطبعة المعارف، بغداد، 1388هـ = 1968م: 94-101. وينظر قصيدته الثالثة من سبعة وعشرين بيتاً ففيها حشد من هذه الألفاظ: 88 ـ 93.

(24) المصدر ذاته: 63.

(25) المصدر ذاته: 65

هذا الغرض عن وحدانية الله، وعن الوحي والنبوة وعن عقيدة الخلق والحياة وعن الموت والبعث والحساب، وعن الثواب والعقاب، والجنة والنار، والحلال والحرام)[26].

ولكن المهم في هذه اللغة أن تكون هذه الألفاظ ذات موقع في الأسلوب يمدها بدلالات أعمق من دلالتها مجردة من النص لأنه (بمقدار ما تسهم الألفاظ في بناء الأسلوب، فإن الأسلوب نفسه يضفي على اللفظة رونقا وجمالا حين يحسن اختيار الموقع لها وينجح في ربطها بغيرها وفي الجو الذي ينشئه حولها)[27].

إن الألفاظ في الشعر ترتبط بالموضوع ارتباطا وثيقا كما رأينا في ألفاظ الفتوح والألفاظ الدينية وترتبط بالمجتمع والناس، كما ترتبط من ناحية أخرى بالشاعر وثقافته فلكل مجتمع لغته الخاصة التي يتداول فيها مجموعة من الألفاظ أكثر من سواها تميزه من غيره من المجتمعات، فلغة البدو غير لغة الحواضر، ولغة أهل المدينة غير لغة أهل مكة، حقا إنها جميعا تغرف من اللغة الأم، ولكن كل مجتمع يغترف ما يلائمه ويناسبه والشاعر هو الآخر لغته عربية ولكن ثقافته اللغوية اختصت له دائرة في داخل دائرة اللغة الأم، واختص هو ألفاظا بعينها يكررها في شعره وأحاديثه حتى تكاد تكون مميزة له واختياره لها يقوم على حسن تذوق لتلك الألفاظ وميل إليها وإعجاب بها عمد إلى ذلك أم لم يعمد، ولهذا السبب صار لكل شاعر أسلوبه الخاص وقيل

(26) الإسلام والشعر، د. سامي مكي العاني، سلسلة عالم المعرفة، العدد (66)، الكويت، 1403هـ = 1983م: 83.

(27) الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته، د. عدنان علي رضا النحوي، ط2، دار النحوي، الرياض 1407هـ = 1987م: 136.

من ثم الأسلوب هو الإنسان. والجاحظ أشار إلى شيء من ذلك بقوله (ولكل قوم ألفاظ حظيت عندهم وكذلك كل بليغ في الأرض وصاحب كلام منثور، وكل شاعر في الأرض، وصاحب كلام موزون، فلا بد من أن يكون قد لهج وألف ألفاظا بأعيانها، ليديرها في كلامه وإن كان واسع العلم غزير المعاني كثير اللفظ) [28]. وللبيئة اثر في اللغة يتفاعل مع ثقافة الشاعر فعندما كان لبيد بن ربيعة يعيش في البادية ويلم بالثقافة القبلية كانت لغته خشنة حتى وصفها أبو عمرو بن العلاء بأنها (رحى بزر) لا تحسن في السمع فلما أسلم وهاجر إلى المدينة وتحضر وتثقف بالقرآن والثقافة الإسلامية أصبح شعره كما يصفه ابن سلام (عذب المنطق رقيق حواشي الكلام)[29].

ولقد رأينا أثر الحضارة في شعر العتاب النبوي عند ثلاثة شعراء تفاوتت لغتهم، فقد اجتازت قصيدة حسان بن ثابت ما في لغة قتيلة من رقة إلى شيء من قوة الألفاظ المناسبة للفخر الذي أشاعه في قصيدته وكانت لغة القصيدتين حضرية جانبت البداوة وابتعدت عن الغريب، ذلك أن حسان وقتيلة حضريان هو مدني وهي مكية فلغتهما ألطف من لغة العباس بن مرداس البدوي الذي لم تصقل الحضارة لغته وأسلوبه ولم يتعمق نفسه الإيمان[30].

---

(28) الحيوان، عمرو بحر الجاحظ (- 255هـ)، تح: عبدالسلام محمد هارون، ط 3، دار الكتاب العربي، بيروت، 1388هـ = 1969م: 3/ 366.

(29) الشعر الجاهلي مراحله واتجاهاته الفنية، د. سيد حنفي حسنين، ط2، دار الثقافة، القاهرة، 1981م: 258. وينظر طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي (-231هـ) تح: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة 1394هـ = 1974م: 9/ 35.

(30) معاتبة النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن وفي الأدب، د. علي كمال الدين الفهادي، مجلة آفاق الثقافة والتراث، عدد (13) السنة (4)، 1417هـ = 1996م: 19.

وهذه ملاحظة تكاد تنطبق على الشعر الإسلامي كله كما يرى د. سامي العاني (فقد حاول معظم شعراء العصر الإسلامي والأموي تحرير أشعارهم من ما كان يثقل الشعر الجاهلي من التعقيد والخشونة والصعوبة، ومالوا نحو السهولة والسلاسة والوضوح وقد ترسموا في ذلك منهج القرآن الذي تميزت ألفاظه بالرقة والسهولة والوضوح مع الفصاحة والبلاغة[31].

وأود أن تقرأ معي قصيدة عبدة بن الطبيب في وصيته لأبنائه، وهي تتألف من ثلاثين بيتا وهي ثاني قصيدة في الطول في شعره، فهي تسجل نقلة في لغة الشاعر من البداوة إلى الحضارة ومن الغريب إلى الواضح السهل، ولغة القصيدة تمثل أولا طبع الشاعر وموضوع الوصية المبنية على الحكمة ثانياً، وشعر البدو المنتقل إلى الحاضرة متأثراً بلغة القرآن ثالثاً، يقول عبدة[32]:

| | |
|---|---|
| أبنيّ إني قد كبرت ورابنـــــــي | بصري وفيّ لمصلح مستمتــــع |
| فلئن هلكت لقد بنيت مساعيـــــاً | تبقى لكم منها مآثر أربــــــــع |
| ذكر إذا ذكر الكرام يزينكـــــم | ووراثة الحسب المقدَّم تنفــــــع |
| ومقام أيام لهنَّ فضيلــــــــــة | عند الحفيظة والمجامع تجمـــــع |
| ولهىً من الكسب الذي يغنيكـــم | يوماً إذا اختصر النفوس المطمع |
| ونصيحة في الصدر صادرة لكم | ما دمت أبصر في الرجال وأسمع |
| أوصيكم بتقى الإله فإنــــــــه | يعطي الرغائب من يشاء ويمنـع |

---

(31) الإسلام والشعر: 272.

(32) شعر عبدة بن الطبيب، تح: يحي الجبوري، دار التربية للطباعة والنشر، بغداد، 1391هـ = 1971م: 30 – 51.

وببر والدكم وطاعة أمـــــــره إن الأبر من البنين الأطـــوع
إن الكبير إذا عصاه أهلــــــــه ضاقت يداه بأمره ما يصنـــع
ودعوا الضغينة لا تكن من شأنكم إن الضغائن للقرابة توضــــع
واعصوا الذي يزجي ألنمائم بينكم حربا كما بعث العروق الأخـدع
حران لا يشفي غليل فـــــؤاده عسل بماء في الإناء مشعشـــع
لا تأمنوا قوما يشب صبيهــــم بين القوابل بالعداوة ينشــــع
فضّلت عداوتهم على أحلامهـــم وأبت ضباب صدورهم لا تنزع
قوم إذا دمس الظلام عليهـــــم حدجوا قنافذ بالنميمة تنــــزع
أمثال زيد حين أفسد رهطــــه حتى تشتت أمرهم فتصدعـــوا
إن الذين ترونهم إخوانكـــــم يشفي غليل صدورهم أن تصرعوا

وخلاصة القول في لغة الشعر أن نصل إلى ما وصل إليه القاضي الجرجاني بقوله (وقد كان القوم يختلفون في [إتقان الشعر] وتتباين فيه أحوالهم فيرق شعر أحدهم ويصلب شعر الآخر، ويسهل لفظ أحدهم، ويتوعر منطق غيره، وإنما ذلك بحسب اختلاف الطبائع وتركيب الخلق فإن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة وأنت تجد ذلك ظاهرا في أهل عصرك وأبناء زمانك وترى الجافي الجلف منهم كزّ الألفاظ معقد الكلام وعر الخطاب، حتى أنك ربما وجدت ألفاظه في صوته ونعمته وفي جرسه ولهجته، ومن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك[33].

وهكذا بدأ يختفي من شعر الشاعر الإسلامي قدر كبير من تلك الألفاظ الوصفية التي عرفت بعد حين بأنها من (الغريب) الذي لا يفهمه

(33) الوساطة: 17 ـ 18.

أغلب الناس، ورقّ أسلوب الشاعر بالضرورة، إذ أصبح حسه اللغوي أكثر ترفاً، فتجنب كثيرا من ذلك (التركيب) اللغوي الذي كان النقاد يعبرون عنه (بالجزالة) كما تجنب كثيرا من الألفاظ التي لم يعد إيقاعها يناسب الحنجرة أو الأذن الحضرية[34].

وربما يكون محمد بن سلام الجمحي من أوائل الذين نظروا إلى الشعر بمنظار حضاري فأعطى للحضارة أهمية في صياغة أفكار الشعر وأسلوبه، ولقد كان لهذا الدور أثر كبير في دفع ابن سلام إلى أن يقسم فحول الشعراء إلى طبقات ثم يصنف هذه الطبقات صنفين: الأول يضم شعراء الحواضر والقرى العربية، والثاني: تناول فيه شعراء، وأبدى ملاحظات بشأن الشعراء الذين أورد شعرهم في كتابه منطلقا من هذا التصور الحضري للشعر، فقال بشأن عدي بن زيد العبادي (كان يسكن الحيرة ويراكن الريف فلان لسانه وسهل منطقه فحمل عليه شيء كثير، وتخليصه شديد، واضطرب فيه خلف الأحمر، وخلط فيه المفضل فاكثر) [35]. وأشار أيضا ومن خلال تصوره الحضري نفسه إلى أشعار قريش ورأى أنها (أشعار فيها لين، فتشكل بعض الأشكال) [36]. ثم فضل ذوق الحضر على ذوق البدو بقوله (وأهل القرى ألطف نظرا من أهل البدو) [37]. ثم تعاور القدماء شيئا من هذا التصور بعد ابن سلام. فابن قتيبة يقول عن عدي بن زيد: (وكان يسكن الحيرة ويدخل الأرياف فثقل لسانه واحتمل عنه شيء كثير جدا، وعلماؤنا لا يرون

(34) في الشعر الإسلامي والأموي: 28.

(35) طبقات فحول الشعراء: 1 / 40.

(36) المصدر ذاته: 1 / 245.

(37) المصدر ذاته: 1/ 68.

شعره حجة)[38]. والملاحظ على قول ابن قتيبة أنه أبدل قول ابن سلام (لان لسانه) بقوله (فثقل لسانه) وشتان بين اللين والثقل، ولكنهما مجمعان على أن ذلك من أثر التحضر، وابن رشيق يثبت عبارة (لانت ألفاظه) بدلا من لسانه، فيقول (وأما عدي بن زيد فلقربه من الريف وسكناه الحيرة في حيز النعمان بن المنذر لانت ألفاظه فحمل عليه كثير، وإلا فهو مقل، ومشهوراته أربع [39]، ويقول الأصمعي (والعرب لا ترى شعر أبي دؤاد وعدي بن زيد لأن ألفاظهما ليست بنجدية) [40]. ثم يبلغ هذا التصور الحضري أوجه عند القاضي الجرجاني في حديثه عن الأسلوب وفيضه من الشخصية المتأثرة بالبداوة أو الحضارة فإن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع ودماثة الخلقة وأنت تجد ذلك ظاهرا في أهل عصرك وأبناء زمانك وترى الجافي الجلف منهم كزّ الألفاظ معقد الكلام وعر الخطاب، حتى أنك ربما وجدت ألفاظه في صوته ونغمته وفي جرسه ولهجته، ومن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك ولأجله قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من بدا جفا) ولذلك شعر عدي – وهو جاهلي أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤبة وهما آهلان، لملازمة عدي الحاضرة وإيطانه الريف وبعده عن جلافة البدو وجفاء الأعراب)[41]

---

(38) الشعر والشعراء، عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (- 76هـ) تح: أحمد محمد شاكر، القاهرة 1377هـ - 1958م: 1/ 238.

(39) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، أبو علي الحسن بن علي بن رشيق القيرواني، تح: محمد محي الدين عبدالحميد، مطبعة السعادة، مصر 1955م: 1/ 104.

(40) الشعر والشعراء: 1/ 238.

(41) الوساطة: 18.

وفي هذا النص نجد اللين الذي عبر عنه كل من ابن سلام وابن رشيق و (ثقل اللسان) الذي عبر عنه ابن قتيبة صفة تقف إلى جانب الشعر الحضري بوضوح وترفع من قيمة الأسلوب الحضري خلافا لما هو عليه أسلوب بعض البدو من الكزازة والتعقيد والوعورة، وبالتالي فإن ليونة الشعر فضل لأسلوبه وليست نقصا كما عده الكثيرون (ضعفاً).

إن هذه النظرة التي تفصل بين الشعر الحضري والشعر البدوي قد طغت على تصور بعض النقاد وعلماء الشعر فراحوا يصغون إلى لغة القصيدة بأذن بدوية تؤثر الغريب والقوي والدوي والشدة، فما خالف ذلك وجاء على الرقة والليونة والعذوبة والسلاسة واليسر والسهولة لم ينسجموا معه فحكموا عليه بالضعف، وقد ارتكب النقد اللغوي جناية كبيرة بحق الشعر العربي بعامة وبحق الشعر الإسلامي على وجه الخصوص والتحديد عندما وزنه بهذا الميزان، فأبو حاتم السجستاني يسأل الأصمعي عن عدي بن زيد أفحل هو؟ فيجيب: ليس بفحل ولا بأنثى، بينما يرى الشماخ الذي أولع بالغريب واشتهر به فحلا [42]، وقد نعى أبو هلال العسكري على المفضل الضبيّ مروياته من القصائد لاهتمام المفضـّل بالغريب فقال في هذا الصدد: (وقد قيل اختيار الرجل قطعة من عقله، كما أن شعره قطعة من علمه.. وكان المفضـّل يختار من الشعر ما يقل تداول الرواة له، ويكثر الغريب فيه، وهذا خطأ من الاختيار لأن الغريب لم يكثر في كلام إلا أفسده، وفيه دلالة الاستكراه

---

(42) كتاب فحول الشعراء، عبدالملك بن قريب الأصمعي (- 216هـ) تح: ش. توري، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1389هـ = 1971م: 12.

والتكلف.. وقال بعض الأوائل:.. والاستعانة بالغريب عجز) [43] وعلى هذا فإن تخلص الشعر في صدر الإسلام من الغريب والغرابة حسنة تقف إلى جانبه من خلال رؤية العسكري.

ويرى د. الحامد أن (حفظة الأدب الأولون كانوا علماء لغة أيضا حملهم تقصّيهم للغة على حب البداوة فأصبح ميزان الشعر الجيد في نظرهم الجزالة والبداوة والغرابة) [44]، فهو يرى أن الرواية هي الأخرى كانت سببا في ضعف الشعر لاهتمامهم بالغريب وما يقف ضد كلمة الليونة، ثم تدرجت النظرة إلى لغة الشعر فصارت إلى جانب الليونة عند القاضي الجرجاني الذي ربط هذا التحول بالتطور الحضاري فقال: (فلما ضرب الإسلام بجرانه واتسعت ممالك العرب وكثرت الحواضر، ونزعت البوادي إلى القرى، وفشا التأدب والتظرف، اختار الناس من الكلام ألينه وأسهله وعمدوا إلى كل شيء بأسماء كثيرة اختاروا أحسنها سمعا وألطفها من القلب موقعا، والى ما للعرب فيه لغات فاقتصروا على أسهلها وأشرفها.. وأعانهم على ذلك لين الحضارة وسهولة طباع الأخلاق، فانتقلت العادة وتغيّر الرسم وانتسخت هذه السنّة واحتذوا بشعرهم هذا المثال وترققوا ما أمكن وكسوا معانيهم ألطف ما سنح من الألفاظ، فصارت إذا قيست بذلك الكلام الأول يتبين فيها اللطف واللين فيظن

---

(43) كتاب الصناعتين _ الكتابة والشعر _ أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل (- 395هـ) تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم، بيروت، 1406هـ = 1986م: 3/1.

(44) الشعر الإسلامي في صدر الإسلام، د. عبدالله الحامد، مطابع الإشعاع التجارية، الرياض 1400هـ = 1980م: 42 و 48 و 49 وينظر الإسلام والشعر: 26.

ضعفا، فإذا أفرد عاد ذلك اللين صفاء ورونقا، وصار ما تخيلته ضعفا رشاقة ولطفا)[45].

وبعد فقد كان التحول الحضري في لغة المسلمين ضرورة ليس لعقيدتهم وحياتهم بدّ منه تجلت مظاهره في شعر صدر الإسلام في موضوعاته التي تناولت الدعوة والإنسان وحياته والموضوعات الدينية والوصايا والحكم والفتوح، وكانت ألفاظها مما استقاه الشاعر من القرآن الكريم الذي نزل بلهجة قريش الحضرية المكية فتغيرت تبعا للغته لغة الشعر فنقاها وصفاها وصقل أذواق الشعراء وهذّب تخاطبهم.

ولقد رأينا كيف كان لعملية التحول الحضري هذه استجابة واضحة واعية لعدد من النقاد الذين طابقت آراء بعض المعاصرين آراءهم في تقبل اللغة الحضرية والانتصار لها في الشعر في حين كانت استجابة آخرين باهتة بلغت عند بعضهم درجة القول بضعف الشعر في صدر الإسلام أو أوحت إلى المحدثين بالقول به على حين كان هذا التحول انتصارا للحضارة والإنسان وفنّــه الشعري.

---

(45) الوساطة: 18 – 19.

# Abstract

# The Language of Islamic Poetry Between Bedouinison and Civilization

***Dr. Ali Kamal Al-Din Al-Fshhadi***(*)


With the advent of Islam the Arabic Language started to improve and develop thanks to the Glorious Quran. People’s life began to change from bedouinism to urbanism. This included poets who neglected the various Arabic dialects and used the Quraish dialect: the language of the Glorious Quran. The public taste improved too, thus ignoring the strange austere bedouin words and embracing many foreign words due to the cultural contact between Arabs and foreign nations.

Ancient critics like Ibn Sallam, Al-Jurjani, Ibn Qutayba, Ibn Rashiq and Hazim Al-Qartajanni (Qartaji?) were aware of this change in their writings as Arabic adopted new words related to Islamic terminology as well as lexes of philosophy, art and science. The use of the bedouin dialect, consequently disappeared from Arbic poetry and was restricted to the description of the desert and its animals.


(*) Dept. of Arabic Language College of Arts / University of Mosul.